﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾

[الزمر: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد التَّنويهِ بشأن القرآنِ تنويهٌ بشأنِ من أُنزِلَ إليه ﷺ

لَمّا بيَّن أنَّ تنزيلَ الكتاب من الله؛ بيَّنَ إلى مَن أُنزِلَ، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فهو شروعٌ في بيانِ المنزَلِ إليه وما يجبُ عليه إثرَ بيانِ شأنِ المنزَلِ، وكونه من عند الله تعالى[1].

استمرارٌ ببيانِ عظمةِ نعمةِ القرآنِ بما يوجبُ القيام بشُكرِها وإخلاصِ الدّينِ لله

لمّا كان الكِتابُ نازلًا مِنَ الحَقِّ العزيزِ الحكيمِ؛ كان مُشتَمِلًا على الحَقِّ لهدايةِ الخَلقِ، ومنزَّلًا على أشرَفِ الخَلقِ، وبهذا عَظُمَتْ فيه النِّعمةُ، وجَلَّتْ، ووجَبَ القيامُ بشُكرِها، وذلك بإخلاصِ الدّينِ لله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُخۡلِصٗا﴾: (خلص) أصلٌ واحدٌ هو تَنقيَةُ الشَّيءِ وتَهذيبُهُ ممّا يشوبه، يَقولونَ: خَلَّصتُهُ مِن كَذا تخليصًا؛ إذا صفَّيْتَه مِن كَدَرٍ أو دَرَنٍ، وخَلَصَ هوَ، والخالصُ كالصّافي، إلّا أنَّ الخالِصَ هو ما زالَ عنه شَوبُهُ بعدَ أنْ كانَ فيه، والصّافي قد يُقال لما لا شوبَ فيه[2]، والمعنى المحوريُّ له: نفاذُ الشَّيءِ نقيًّا مِن أثناء ما كانَ يُخالطُه، أو يَشوبُه[3]، وأخلَصَ الشَّيءَ: اختارَهُ، والمُخلَص: الَّذي جَعَلَه اللّه مُختارًا خالِصًا مِن الدَّنَسِ، والمُخلِصُ: الَّذي وحَّدَ اللّه تَعالى خالِصًا[4]، والمعنى في الآية: وأخلِصْ له الألوهيَّةَ، وأفرِدْه بالعبادةِ، فلا تجعلْ له في عبادتك إيّاه شريكًا، أي: مخلصًا دينَهُ مِن شوائبِ الشِّركِ والرِّياءِ[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240، وابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 20.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (خلص).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلص).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خلص).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 250، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 48.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نـازلٌ مِـن الحقِّ متلبِّسٌ بالحقِّ عـلى أشـرفِ الخلق لهدايتهم بالتَّوحيدِ لله

وجَّهت الآيةُ الكريمةُ الخطابَ إلى نَبيِّ اللهِ ﷺ لبيان المُنزَل إليه وعظمته عند اللهِ، وبيانِ غرضِ التَّنزيل، أي: إنّا أنزَلْنا - بما لنا من العظمةِ إليك يا مُحمَّدُ - القُرآنَ ملتبسًا بالحقِّ الذي لا شكَّ فيه، ولأجلِ الأمرِ بالحقِّ والعدلِ، ومِن ذلك الحقِّ والعدلِ أنْ تعبدَ اللهَ مخلصًا له الدّين؛ لأنَّ الدّينَ له لا للأوثانِ الَّتي لا تملكُ ضرًّا ولا نفعًا، فاخشعْ للهِ يا محمَّد بالطاعةِ، وأخلصْ له الألوهيَّةَ، وأفرده بالعبادة، ولا تجعلْ له في عبادتكَ إيّاه شريكًا، كما فَعَلَتْ عَبَدةُ الأوثان[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآية عمّا قبلَها:

استِـئـنـافٌ وشُـروعٌ في بَيانِ شَأنِ المُنَزَّلِ إليه وما يَجِبُ عليه

جملةُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ تتنزَّلُ منزلةَ البيانِ لجملة ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: بين الجملتين كمالُ اتِّصال، ولذا لم يربطْهُما بعاطفٍ، أي: الآيةُ هي استِئنافٌ وشُروعٌ في بَيانِ شَأنِ المُنَزَّلِ إليه، وما يَجِبُ عليه، إثْرَ بَيانِ شَأنِ المُنزَّلِ، وكَونِه مِن عِندِ اللهِ تَعالى[2].

نكتةُ العدولِ عن أسلوبِ الغيبةِ إلى التَّكلُّم:

قيـاسُ الغائبِ عـلى الـحـاضـرِ والخفيِ المستورِ عـلى الـظـاهـرِ المشاهَدِ

عدلَ النَّظمُ الحكيم مِن أسلوبِ الغَيبةِ في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولم يقلْ: (هو الذي أنزل إليك الكتاب)؛ تفنُّنًا في الخطاب، وليُحْدِثَ إيقاظًا ولفتًا للانتباه إلى أنَّ ما سيتكلَّم عنه، وينتقلُ إليه - وهو إنزالُ القرآنِ - أمرٌ مهمٌّ عظيمٌ، وكلامٌ يجب التَّنبُّهُ له واهتمامُ السّامع لأمرِه، ولذا أكَّد هذا التَّنبيه باستخدامِ ضمير التَّكلُّم الدالِّ على التَّعظيم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 248.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 388.

في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ﴾، وعلى تفسيرِ الكتابِ في الآيةِ الأولى بالكُتُبِ السَّماويَّة تكونُ بلاغةُ الانتقالِ هي لفتُ الأنظارِ إلى تأمُّلِ كلامِ اللهِ؛ ليكونَ طريقُ الاقتناعِ المطمئنِّ والتَّسليم بنسبةِ الكُتُبِ السَّماويَّةِ كلِّها إلى اللهِ ﷻ قياسًا للغائبِ منها على الحاضر، والخفيِّ المستورِ على الظّاهرِ المشاهد[1].

غرضُ التَّوكيدِ في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ﴾:

اهتمامٌ بخبرِ إنزالِ القرآنِ وتعريضٌ بالذين أنكروهُ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ من خلالِ الافتتاحِ بحرفِ التَّوكيد (إنَّ)، وغرضُهُ أمران: أوَّلُهما: الاهتمامُ بالخبر، إنْ روعي فيه معنى الامتنانِ على رسولِ اللهِ ﷺ باختصاصِهِ بإنزالِ القرآن إليه، وتشريفِهِ بهذا المقامِ العظيم، وكذلك زيادةُ الإعلانِ بصدقِ النَّبيِّ المُنَزَّلِ عليه الكتابُ، وهو جَديرٌ بالتَّأكيد؛ لأنَّ دَليلَ صِدقِهِ ليس في ذاتِهِ، بل هو قائمٌ بالإعجازِ الَّذي في القُرآنِ، وبغَيرِهِ مِنَ المُعجزاتِ، فكان مُقتَضَى التَّأكيدِ مَوجودًا، بخِلافِ مُقتَضى الحالِ في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[2].

وثانيهما: التَّعريضُ بالمشركين بالتَّأكيدِ على خبرِ إنزالِ القرآنِ من عندِ اللهِ سبحانه؛ لأنَّهم أنكروا أنْ يكونَ منزَّلًا مِنَ اللهِ.

كما أنَّ في تَكرارِ الإنزالِ توكيدًا غرضهُ التَّنبيهُ على زيادةِ عظمةِ هذا الكتابِ المنزَّل[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ في ﴿إِنَّآ﴾ و﴿أَنزَلۡنَآ﴾:

في تعظيمِ اللهِ وتعظيمِ إنزالِهِ تعظيمٌ للقرآنِ وللنَّبيِّ العدنان

جاء الضَّميرُ في ﴿إِنَّآ﴾ و﴿أَنزَلۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بصيغةِ الجمع، أي: نون العظمةِ مع أنَّ اللهَ واحدٌ أحدٌ[4]؛ ليُشعرَ بعظمةِ المنزِّل سبحانه، وعظمةِ الكتابِ المنزَّل،

(1) طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص: 112.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 315.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 439.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 181.

وعظمة المُنزَل عليه ﷺ، ويُفيدَ التَّأكيدَ لإثباتِ المضمون، وتحقُّقَ الموعودِ، وهو إنزالُ الكتابِ الجامعِ لكلِّ صلاح الملتبسِ بالحقِّ، كأنَّه يقول: "إنّا على ما لنا من العظمةِ أنزلنا بما لنا من العظمةِ إليك الكتاب"[1]، كما أنَّ في التَّعبيرِ بهذا الضَّمير اختصارًا في الكلام، يُذكرُ في سياقِ التَّفخيمِ والإعظامِ.

دلالةُ التَّعبيرِ في ﴿أَنزَلْنَآ﴾ مادَّةً وصيغةً:

علوُّ المُنزِّل سبحانه وشرفُ المُنزَّل والمُنزَّل إليه

عُبِّرَ بمادَّةِ الإنزال في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ للدَّلالة على علوِّ المُنزِّل سبحانه وشرفِه، وشرف المُنزَّل، وشرفِ المنزَّل إليه ﷺ؛ لأنَّ الإنزالَ يكون من علوٍّ[2]، وعدلَ النَّظمُ عن صيغة الفعلِ الأصليَّة (نزل) إلى صيغة (أفعل)، فلم يقُلْ: (نزَل الكتابُ)؛ لأنَّ الفعلَ الماضي المُجَرَّد لهذه الكلمة (نَزَل) فعلٌ لازمٌ لا يتعدّى إلى مفعولِه بنفسه، وبتحوُّله إلى صيغة (أنزل) فإنَّها تصبح قادرةً على أنْ تتعدّى إلى مفعولها؛ لأنَّ من طرقِ تعديةِ الفعل اللازم إلحاقَ همزةِ التَّعدية بأوَّله، وفائدةُ التَّعدية أنْ يُصرَفَ إسنادُ الإنزال إلى الله وحده، ليس بين المسندِ والمسندِ إليه واسطةٌ، ولا وسيلةٌ، على سبيلِ المبالغةِ في تحقيقِ مقصود السّورة (إخلاص العبادة)، وللمبالغةِ في التَّحذير من الشِّركِ والنَّهي عن كلِّ أنواعِه، وسدِّ كلِّ طريقٍ يوصلُ إليه[3]، ومن المعاني الَّتي تفيدها همزةُ التَّعدية في صيغة (أفعل) معنى الجَعْلِ، أي: جعل لك نعمةَ إنزال القرآنِ، وهي نعمةٌ عظيمة، تظهرُ عظيم إفضالِه سبحانه على خَلْقِه، وفي هذه الصّيغة كذلك معنى الخِفَّة، الَّتي يوحي بها سهولةُ خروجها عند النُّطقِ بها، وجريان النَّفَس، وعدم تعَثُّر الصَّوت عند نطقها، أو صعوبة مخارجها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 439.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13014.
(3) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 49.

الحكمُ بإنزالِ القرآنِ على النَّبيِّ حكمًا كليًّا ثمَّ إيصاله إليه منجَّمًا وفقَ المصالح

تنويهٌ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، فهو غايةٌ لنزولِ القرآنِ

والتَّعبيرُ بالإنزالِ بعد التَّعبيرِ بالتَّنزيل في الآية السّابقة للإشارةِ إلى أنَّ القرآنَ نزلَ جملةً ومُفرَّقًا، والمعنى: "إنّا حكمنا حكمًا كليًّا جازمًا بأنْ يوصلَ إليك هذا الكتاب - وهذا هو الإنزالُ - ثمَّ أوصلناه نجمًا نجمًا إليك على وفقِ المصالح، وهذا هو التَّنزيلُ"[1].

معنى (إلى) ونكتةُ التَّقييدِ في ﴿إِلَيۡكَ﴾:

الأكثرُ والأصلُ أنْ يُعدّى الإنزالُ بحرف (على)؛ لأنَّه في معنى السُّقوط، ولكنَّه عُدّي هنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بحرفِ الانتهاءِ ﴿إِلَيۡكَ﴾؛ لتَضْمينِهِ معنى الوصف، فالمُنْزَلُ إليهِ ﷺ غايةٌ للنُّزول، والمعنى: أنزلناه لغايتكَ، أي: أنتَ غايةٌ بحدِّ ذاتك، وهذا فيه تنويهٌ بشأنِ رسولِ الله ﷺ، ومدحٌ وثناءٌ عليه، كأنَّه هو نهايةُ الغايةِ في الإنزال[2]، ولأنَّ (إلى) يُراعى بها وصولُ المنزلِ بواسطة المَلك، بخلاف (على) الَّتي يُراعى بها وصولُهُ من عند الله سبحانه من غيرِ واسطةٍ، وللتَّناسبِ مع الآية السابقة، الَّتي ورد فيها لفظ (مِن) في: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الَّتي هي لابتداءِ الغايةِ، فناسبَ مجيءُ (إلى) الَّتي هي لانتهاءِ الغاية؛ للدَّلالة على أنَّ القرآنَ مبدأهُ من اللهِ، ومنتهاه أنْ يُبلَّغ لرسوله وللعالمين، كما أنَّ استعمالَ حرفِ الانتهاء في ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه تشديدُ التَّكليف عليه، وإنزاله منزلةَ أمَّتِه، فيما يجبُ على عالمهم تبيينُهُ لمتعلِّمهم، فقد أُمِرَ بإخلاصِ العبادة، والمرادُ هو وأمَّته، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: 44]، فكان المرادُ أنَّه تناهى إلى حيثُ لا متعدَّى وراءه[3]، بخلاف (على) الَّتي تدلُّ على التَّخفيف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الزمر: 41] بدليلِ قوله بعده: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٤١﴾ [الزمر: 41]، أي: لستَ بمسؤولٍ عنهم[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 378.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 239، 23/ 315.
(3) الكرماني، البرهان، ص: 321.
(4) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 491.

نكتةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

بيانُ شرفِ النَّبيِّ واختصاصِه بالوحي

قدَّم البيانُ الحكيم ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للاختصاص[1]، أي: أنزلنا إليك خاصَّةً بواسطة الملَك، لا يقدرُ أحدٌ مِنَ الخلقِ أنْ يدَّعي مشاركتك في شيءٍ مِن ذلك، فتكون دعواه موجبةً لنوعٍ من اللَّبس[2]، وفي هذا الاختصاصِ تشريفٌ للنَّبيِّ ﷺ، وبيانٌ بأنَّه أشرفُ الخلقِ.

نكتةُ إعادةِ ذِكر ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وإظهاره:

تفخيمُ القرآنِ والتَّنويه بشأنِهِ دعوةً وإرشادًا

أعادَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فجاء بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ "إظهارًا لشرفِه ولكمالِ تقرُّره في الذِّهن، وتربيةً لمهابتِه في النُّفوس، ولتشريفِ النَّبيِّ ﷺ، ولتوصيفه بالحقِّ المنفهم ممّا مَرَّ؛ لأنَّ المنزَلَ مِنَ الله لا يكون إلّا حقًّا وملابسًا بالحقِّ"[3]، وكذلك للتعظيم والتفخيم له والتَّنويه للاعتناءِ بشأنه[4]، بالتَّنبيهِ على ما فيه من جمعِ الأصولِ والفروع واللَّطائف والمعارف، أي: (أنزلنا إليك الكتابَ الجامعَ لكلِّ خيرٍ مع البيانِ القاطعِ والحكمِ الجازمِ بالماضي والآتي والكائن)[5]، ولتكونَ جملةُ الاستئنافِ جملةً مستقلَّةً، واستقلالُ الجملةِ ووضعُها وضعًا لا تحتاجُ فيه إلى ما قبلها من بلاغةِ الكلام، وهذا باعتبار أنَّ معنى الكتاب في الموضعين هو القرآنُ الكريم، ويكون في هذا التَّفخيمِ والتَّنويهِ دعوةٌ للإيمانِ به والاعتناءِ به والاستمساكِ بهديه، ويرى النَّسفيُّ أنَّ "هذا ليس بتكرار؛ لأنَّ الأوَّل كالعنوانِ للكتاب، والثاني لبيان ما في الكتاب"[6].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 181.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 465.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 315.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 168.

وأمّا مَن فسَّرَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في الآية الأولى بالكُتُبِ السَّماوية السّابقة، وفي الثانية بالقرآن، فتكون إعادتُهُ وإظهاره لاختلافِ المقصودِ بهما، وللإشارةِ إلى أنَّ الَّذي أنزل الكُتُبَ السَّماويَّة هو مَن أنزلَ هذا الكتاب، وأنَّ القرآنَ الكريمَ يجمعُ ما في الكُتُبِ السّابقة، ويهيمن عليها.

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

ملابسةُ القرآن للحقِّ وإظهارُه له موجبٌ لقَبولهِ والعملِ به

(الباء) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إمّا متعلِّقةٌ بالإنزال، أي: بسببِ الحقِّ وإثباته وإظهارِه، أو بداعيةِ الحقِّ واقتضائه للإنزالِ، وإمّا بمحذوفٍ هو حالٌ من نونِ العظمةِ، أي: أنزلناهُ إليك محقّين في ذلك، أو حالٌ من الكتاب، أي: أنزلناه مُلتبسًا بالحقِّ والصَّواب في جميع معانيه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: 42][1]، والمراد من ذلك أنَّ كلَّ ما فيه حقٌّ لا ريبَ فيه، ولا يحومُ حوله باطلٌ، أو ما يشبهُ الباطل، وهذا موجبٌ لقبولهِ والعملِ به حَتْمًا[2].

دلالة التَّعبير بـ(الحق):

الحقُّ أوسعُ مدلولًا وأشملُ مضمونًا وأنسبُ لسياقِ التَّعظيم

أصلُ (حقَّ) يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِهِ[3]، ويدلُّ كذلك على ثبوتِ الشَّيء ولزومه[4]، ويأتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيح، وضِدُّهُ: الباطِلُ[5]، والحَقيقَةُ: الشَّيءُ الصَّحيحُ يَقينًا[6]، وبناءً على ذلك فإنَّ انتقاءَ لفظِ (الحقِّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ لسعتهِ وشموله، ولتناسبهِ مع سياقِ التَّعظيم للمنزِّل سبحانه،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 182، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 315.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 224، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 192.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقق).
(6) مصطفى، المعجم الوسيط: (حقق).

وللمنزَّل وهو القرآن، وللمنزَّل إليه ﷺ؛ ولذا فإنَّه يصوِّر بظِلاله ما في الكتاب الذي أنزلَهُ على نبيِّه ﷺ مِن القضاءِ بين الخصوم، وشتّى أصنافِ العلوم، فقد دمغَ رؤوسَ الباطل، وأسَّسَ العدلَ، وأحيا القلوبَ بعد مواتٍ، وأرسى قواعدَ الفضيلةِ والهدى والعلمِ والنّور.

كما أنَّ انتقاءَ هذا اللَّفظ للتَّعريض بالمشركين الذين خالفوا الحقَّ، واتَّبعوا الباطلَ بأقوالِهم وأفعالِهم ومعتقداتِهم الشِّركيَّة، فالحقُّ هو ما أنزلهُ لأجلِ القرآن، أو ما تضمَّنه دون سواه، وما عليه أدعياءُ الحقِّ هو الباطلُ لا سواه.

العدولُ في قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾:

عدلَ النَّظمُ الحكيم من أسلوب التَّكلُّم بنون العظمةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى أسلوبِ الإفرادِ، فقال سبحانه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ولم يقلْ: (فاعبدنا مخلصًا لنا الدين)؛ وذلك لكون الإفرادِ هو الأنسب للسّياقِ، والأبلغ في أداءِ المعنى المرادِ على أكملِ وجهٍ؛ إذ إنَّ في انتقاله إلى الإفراد تمكينًا وتهيئةً للتَّصريح بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي اختصَّ به، وتفرَّد به سبحانه، "ولفتًا للقولِ عن مظهرِ العظمةِ إلى أعظم منه بلحظِ جميعِ صفاتِ الكمال، لأجلِ العبادة تعظيمًا لقدرها؛ لأنَّها المقصودُ بالذات"[1]، ويكون العدول بذلك قد أظهرَ التَّناسبَ والملاءمةَ في السّياق بين معانيه الجزئيَّة وبين تراكيبِه وألفاظِه المتجاورة، فتظهر بذلك بلاغةُ الكلام وجمال التَّعبير.

في الإفرادِ تمكينٌ وتهيئةٌ لإظهارِ الاسم الجليل الجامعِ لصفاتِ الكمال

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالعِبادةِ على إنزالِ الكِتابِ إلى النَّبيِّ ﷺ بالحَقِّ، فأُمِرَ بأنْ

مَـن اختـصَّ، وتفرَّد بالنِّعَمِ؛ كـان المستحقَّ الوحيدَ للعبادةِ الخالصة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.

يَعبُدَ اللّهَ مُخلِصًا له العِبادةَ، مُمَحِّضًا له الدّينَ مِن شَوائِبِ الشِّركِ والرّياءِ، حَسبَما بُيِّنَ في تَضاعيفِ ما أُنزِلَ إليه[1]، أي: لمّا امتَنَّ تعالى على رَسولِه بإنزالِ الكِتابِ عليه بالحَقِّ، وكان الحَقُّ إخلاصَ العبادةِ للّهِ؛ أمَرَه تعالى بعبادتِه[2]، وفي هذا التَّفريعِ تَعريضٌ بما يُناسِبُ المَعنى التَّعريضيَّ في المُفَرَّعِ عليه، وهو أنَّ المُعرَّضَ بهم أنْ يَعبُدوا اللّهَ مُخلِصينَ له الدّينَ، عليهم أنْ يَدَّبَّروا في المَعنى المُعَرَّضِ، وهذا إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ الكتابِ عليه نعمةٌ كبرى تقتضي أنْ يقابلَها الرَّسول ﷺ بالشُّكرِ بإفرادِه بالعبادةِ، وإيماءٌ إلى أنَّ إشراكَ المشركين باللّه غيره في العبادة كفرٌ لِنِعَمِهِ الَّتي أنعمَ بها[3]، وفي الفاءِ كذلك معنى السَّببيَّة والتَّعقيب، أي: إنَّ إنعامَ اللّه لنبيِّه وتفضُّله بنعمةِ إنزالِ الكتاب إليه خصوصًا توجبُ، وتقتضي مباشرةً وعلى وجهِ السُّرعةِ استحقاقَ اللّهِ للعبادةِ الخالصةِ والدّين الخالص له وحدَهُ، فاستحقاقُ اللّه للعبادة الخالصة هي بمنزلةِ النَّتيجةِ الثّابتة لِما قبلها، والغرضُ المُهِمُّ المرادُ تحقيقه بما قبله مِنَ الأسبابِ والطُّرقِ المؤدّية إليه والمحقِّقة له[4].

دلالةُ التَّعبير بالعبادة في الفعل ﴿فَٱعۡبُدِ﴾:

الخضوعُ والتَّذلُّلُ والانقيادُ للهِ وحده هو غايةُ سورة الزُّمر ومقصدها الأوَّل

المعنى العامُّ الشّائعُ لكلمةِ العبادة هو الخضوعُ والتَّذلُّل والانقيادُ، وأنَّ المُتَّصفَ بها يقعُ تحتَ تصرُّفِ من يخضعُ له[5]، ومعناها في اصطلاحِ الشَّرع: خضوعُ العبدِ وانقيادُهُ لكلِّ ما يأمرُ به اللّهُ واجتنابه لكلِّ ما ينهى عنه على خلافِ هوى نفسِه تعظيمًا للّه ﷻ[6]، أي: هي "أقصى درجاتِ التَّذلُّلِ والخضوعِ للمعبودِ ﷻ"[7]، وقد جاء التَّعبيرُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 182.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 315 - 326.
(4) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 270.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(6) الجرجاني، التعريفات، ص: 189.
(7) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 192.

بالعبادة هنا متناسبًا مع أحدِ أهمِّ مقاصدِ السّورة والمضمون العامِّ لها، وهو الدَّعوةُ إلى عبادةِ اللّه وحده لا شريكَ له باطنًا وظاهرًا، فقد وردَتْ مفردةُ العبادةِ في ستَّ عشرةَ مرَّةً، ثمانٍ منها بصيغةِ الاسم على الاستمرارِ والثُّبوتِ والدَّوام، وجاءَتْ في الثَّماني الأخرى بصيغةِ الفعل الدّالِّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ.

غرضُ الأمرِ في الفعل ﴿فَٱعۡبُدِ﴾:

إثـارةٌ وتهييجٌ لرسولِ الله ﷺ ليـزدادَ تمسُّكًا بالحقِّ واليقين

أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بالعبادةِ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مع أنَّها واقعةٌ منه ﷺ، ولا يُتصوَّر منه خلافها، ولذا فأمرهُ خارجٌ عن معنى الأمرِ الأصليِّ لأداءِ معنى آخر، وهو الإثارةُ والتَّهييجُ والإلهاب حتى يستمرَّ بالإخلاص في عبادته[1]، ويزدادَ ﷺ تمسُّكًا بما هو عليه من الحقِّ واليقين، ويستمرَّ على ذلك، كما يمكنُ أنْ يكون أمره بما هو قائمٌ به، للإشارةِ إلى أمرِ غيره، وهم الَّذين لم يفعلوا تلكَ الأوامر، وهذا أسلوبٌ راقٍ في التَّربيةِ والحضِّ على الفعل، بعدمِ أمرِهم تصريحًا، بل حضِّهم تعريضًا، وهذا معاملةُ إكرام، وفي الأمرِ المباشر إشارةٌ إلى إظهارِ سلطانِ الرُّبوبيَّة وغلبتها وتفرُّدها بالأمر والنَّهي، وأنَّ البشريَّةَ في أسمى صورها - وهي النُّبوَّةُ - تُؤمرُ وتُنهى، وهذا تعميقٌ للفرقِ بين الألوهيَّة والنُّبوَّة، وأنَّ محمَّدًا ليس إلّا بشرًا، وبذلك يضمنُ القرآنُ نقاءَ عقيدةِ الوحدانيَّة الَّتي حرصتِ السورةُ على تأكيدها، بل إنَّها جعلته محورها ومقصودها الأهمَّ[2].

مرجعُ ضميرِ الخطابِ في الفعل ﴿فَٱعۡبُدِ﴾:

الإخـلاصُ بالعبادةِ أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ ولأمَّتهِ مِن ورائه

ضميرُ الخطاب في قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾ يعودُ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الأمرَ بالعبادةِ جاء مترتِّبًا على خطابِ اللّه له: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ على سبيلِ الامتنانِ بالنِّعمةِ العظيمةِ عليه، الَّتي تستوجبُ الشُّكرَ بالثَّبات

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 465.
(2) أبو موسى، دلالات التراكيب، ص: 253 - 245.

على إخلاصِ العبوديَّة لله، ولكن وإنْ كان الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، والأمرُ له بالعبادة، فإنَّه أمرٌ للأمَّة بشخصِ نبيِّها ﷺ، والغرضُ من ذلك تعظيمُ هذا الأمرِ وبيانُ جلالةِ شأنِه.

دلالةُ تعليقِ العبادةِ بالاسم الجليلِ في ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾:

التَّصريحُ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ الجامعِ لكلِّ صفاتِ الكمال والجلال؛ تنبيهًا على وجوبِ لحظِ جميعِ صفاتِ الكمالِ للهِ عند عبادتِه، وتعظيمًا للعبادة ورفعًا لقدرها[1]، كما أنَّ الاسمَ الجليلَ الذي اختصَّ به سبحانه، وتفرَّد به، فلا يتسمّى به غيره، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]، هو الأنسبُ لسياقِ الامتنان والتَّفضُّلِ على رسولِ الله ﷺ بما خصَّه اللهُ به مِنَ النِّعَمِ الَّتي شرَّفه بها، وكرَّمه باختصاصه بها، وأعظمها اختصاصُهُ بإنزالِ القرآنِ الكريم دون غيره، أي: جاء التَّصريحُ ليتحقَّق التَّناسب بين معنى الاختصاصِ في حقِّ المُنعِم ﷻ الَّذي أنزلَ الكتاب، والاختصاصِ في حقِّ المنعَم عليه، وهو الرَّسول ﷺ، واختصاصِ اللهِ بالعبادةِ الخالصةِ له وحده لا شريكَ له، وإمحاضِ الدّينِ كلِّه لله وحدَهُ وتصفيته من كلِّ شركٍ[2].

وجوبُ لحظِ جميعِ صفاتِ الكمالِ للهِ عند عبادته

دلالةُ التَّعبيرِ بالإخلاص في القيد ﴿مُخۡلِصٗا﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الإخلاصِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ دونَ غيرِه، كالصِّدقِ مثلًا، فلم يَقُلْ: (فاعبدِ الله مصدِّقًا)، لكون لفظِ الإخلاص أنسبَ للسّياق، الذي يتحدَّثُ عَنِ الشِّركِ واتِّخاذِ الأولياء من دونِ الله، وأنسبَ لمقصودِ السّورةِ الَّتي عمودُها الإخلاصُ لله، ولذا سُمِّيَت بـ(سورة الإخلاص)، التي من خصائصِها أنْ وردَ فيها لفظ ﴿مُخۡلِصٗا﴾ مفردًا بحقِّ النَّبيِّ ﷺ ثلاثَ

الإخلاصُ أصلُ كلِّ عملٍ بتصفيةِ النّيَّة في أوَّلِه وعدمِ الالتفاتِ إليه في آخره

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.

(2) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 270.

مرّاتٍ، كما أنَّ الإخلاصَ أعلى مِنَ الصِّدق؛ إذ ليس المطلوبُ عدمَ التَّكذيب، بل ما هو أعلى مِن ذلك، وهو الإخلاصُ الَّذي هو الإمحاضُ وعَدَمُ الشَّوبِ بمُغايِرٍ، وهو إفرادُ اللهِ بالإلَهيَّةِ؛ ليَثْبُتَ النَّبيُّ ﷺ على عِبادةٍ غَيرِ مَشوبةٍ بحَظٍّ دُنيَويٍّ، قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[1]، وفي تقييدِ العبادةِ بالإخلاصِ كذلك دلالةٌ على بيانِ أهمّيَّته بالتَّصريح به، لصعوبتِهِ على النَّفْسِ، ولذلك أكَّده في السورة، وصرَّح بهذا اللَّفظ في عدَّة مواضع منها، فهو كما قال الجنيد في بيانِ أهمّيَّته: "أصلُ كلِّ عملٍ، وهو مربوطٌ بأوَّل الأعمال – وهو تصفيةُ النّيَّة – ومنوطٌ بأواخر الأعمالِ بألّا يلتفتَ إليها، ولا يتحدَّثَ بها، ويضمر في جميع الأحوال إفرادَ الله بالعمل"[2]، ولذا لم يؤتَ في هذا التَّركيب بصيغة قصر، دون تصريحٍ به، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ [الزمر: 66][3].

لطيفةُ صوغِ ﴿مُخْلِصًا﴾ اسم فاعل:

جاء لفظُ ﴿مُخْلِصًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ على وزنِ اسمِ الفاعل الَّذي يدلُّ على الثَّباتِ والاستمرار؛ مبالغةً في بيانِ ثباتِهِ على الإخلاصِ، وأنَّ المطلوبَ منه ﷺ بلوغُهُ الغايةَ في الإخلاص، والاستمرارُ والثَّباتُ عليه، أي: كما خصَّكَ اللهُ بهذا الأمرِ، فأخلصْ؛ لتكونَ رأس المخلِصين[4].

رسولُ الله ثابتٌ على الإخلاصِ مستمرٌّ فيه فهو رأسُ المخلِصين

نكتةُ حذفِ متعلّق ﴿مُخْلِصًا﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿مُخْلِصًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لإفادة العموم؛ إذ لو ذُكِرَ الشِّرك؛ لاقتصرَ عليه، وإنَّما المقصودُ إخلاصٌ عن كلِّ شائبةٍ من شركٍ ورياءٍ وكلِّ حظٍّ دُنيويٍّ،

إخلاصٌ عن كلِّ شائبةٍ من شركٍ ورياءٍ وحظٍّ دُنيَويٍّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 316.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 316.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.

إخلاصًا تامًّا، لا يحومُ حوله رياءٌ أو تفاخرٌ، أو غير ذلك ممّا يتنافى مع إخلاصِ الخضوعِ للّه تعالى وحده حسبما بُيِّن في تضاعيفِ ما أنزل إليه ﷺ[1].

معنى (اللام) ونكتة التَّقييد بـ ﴿مُخۡلِصًا لَّهُ﴾:

خَـصَّـهُ تعالى بالعبادةِ كما خَصَّك بالنِّعمة العظمى

لامُ ﴿لَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مُخۡلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ للاختصاص، والمعنى: (فاعبدِ اللّه مخلصًا لَه وحدَهُ الدّين بمعانقة الأمرِ على غايةِ الخضوع؛ لأنَّه خصَّك بهذا الأمرِ العظيم، فهو أهلٌ منك لأنْ تخصَّهُ بغايةِ الخضوعِ، وخسأ عنك الأعداءُ، فلا أحدٌ منهم يقدرُ على الوصولِ إليك، فأخلِصْ؛ لتكونَ رأسَ المخلصين)[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿لَّهُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلدِّينَ﴾:

العبادةُ كُلُّها مُخَصَّصةٌ لله وحده سبحانه

قدَّم البيانُ الحكيمُ الجارَّ والمجرور ﴿لَّهُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلدِّينَ﴾، ولم يقلْ: (مخلصًا الدينَ لَه)؛ لإفادةِ الحصرِ والقصر، أي: مخلصًا له وحده لا لغيره[3]، فالعبادةُ كلُّها مُخَصَّصةٌ له وحده سبحانه، ممّا يُبرزُ أهمّيَّةَ الإخلاصِ في النّيَّة، وإخلاصها عن الشَّوائب، وتأكيد ذلك، وأنَّه هو جوهرُ العبادة[4]، ويبرزُ خصوصيَّةَ العلاقةِ بين العبدِ وربِّه، كما أنَّ هذا التَّقديم يومئُ بتفخيم أمرِ العبادة، وأنَّها ليستْ مجرَّدَ أفعالٍ تُؤدّى، بل هي عملٌ يُخَصُّ به اللّهُ تعالى، ممّا يعكسُ مكانته السّامية، كما أنَّ في التقديمِ مراعاةً للفاصلة القرآنيَّة.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 316، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 515.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»